العالم فى عينة

بقلم : عبدالفتاح الديدى

فى وقت ما من عام ٥٠٠٠ كان أحد الشبان فى سن الحادية والعشرين يحاول الدخول الى معمل مهيىء بكافة الأدوات والأجهزة . وكان يسرع خطاه نحو كهل فى الخامسة والخمسين يقف أمام مجموعة من الحجارة وأصناف من الرمال .

الشاب ــ لقد وجدتها يا سيدى .

الرجل ــ ما هذا الذى تقوله ؟ لعلك لا تريدنى ان أصدق .

هذا الزعم . قصيدة غزل من رجل فى امراة اتريدنى أن أصدق ذلك .

ــ بل أريد أن تسمع هذه الأنشودة .

ــ اسمعنى .

ــ أواه من حب لا يفتأ يستنهض قواى .

نحو المجد ونحو أى شىء ترغبين فيه يا حبيبتى .

لقد عشت أيامى .. أيامى كلها .

أتملى النور من عينيك .

والظلام من شعرك الفاحم .

واذوق طعم الوجد من رضابك .

فألق بى عند أعتاب خطوك .

أو فى هاوية خراب .

أنا صنيع هواك .

ــ وبأى لغة كانت هذه القصيدة ؟ .

ــ انها من عصر يبعد عنا بمائتى ألف سنة فى تقديرى وهى مكتوبة بلغة كانوا يستخدمونها للافاضة بحالات الشعور الوجدانى المفعم اسمها الايطالية .

ــ وأين وجدت خطوط هذه اللغة ؟

ــ فى بئر عند حافة نهر الفركور .

ــ أهو ذلك النهر الممتد فى قلب قارة شيشتر ؟ .

ــ نعم يا أستاذى .. الا أستحق الآن شهادة الدكتوراه . ان نظريتى صائبة مائة فى المائة . لقد كان الناس فى عصر ما قبل ظهور الآدمى الحالى يستخدمون لغات متعددة ويتغنون بمحاسن أنثى لا تمشى على أربع وتفهم احيانا ما يقولون . وكان الرجل هو الذى يطارد المراة ويحاول اقتناصها . انها

شيء آخر سوى أنثى هذه الأيام التى تطـارد الرجال وتقتنص أجود الذكور وتتغنى بمحاسنهم .

ـ تقول ان الناس كانوا يستخدمون لغات متعددة ؟ .

ـ أجل يا سيدى . . كان عندهم وقت كاف لدراسة هذه اللغات سنوات طويلة من عمرهم حتى يتكلموا بهـا فى بقاع متباعدة . لم يكونوا يحسون بأن الوقت شيء هام . آه .. يا أستاذى .. كم أحلم بعالم مثـل عالمهم . كم أتمنى أن تكون لى حبيبة احاول نشدان هواها ورضاها . ان ليمبة التى عندنا فى البيت تستولى علينا بمجرد الدخول عند الظهر واحـدا واحـدا .. انا وأبى وأخى وصديقى . . ولا يفلت من براثنها سوى عامل البيت . وحينما سألتها يوما لماذا لا تحاول مداعبته قالت : انه يستطيع بأزراره الذرية أن يجعل شقتنا فى أعلى طابق ويسقط مكانها شقة من الطابق الأربعـين أو الخمسين . وهى تشعر عادة بالدوار بعد الدور العشرين .

ـ ولا تريدنى أن أحسدك على هذا النعيم . لقد تركت باب بيتى مفتوحا منذ سنتين بعد وفاة زوجتى شمناس ولم تطرق بابى مع ذلك مخلوقة واحدة من الأنثيات . يقولون ان الحكومة جادة فى استحضار نساء من ساحل المرمر . لقد بدأت الحكومة تعلن عزمها الجاد على حل أزمة النسـاء وسوف تغرى نساء ساحل المرمر بمزايا عديدة فى أقليمنا ورجالنا .

ـ بل تكمن المشـكلة يا سيدى فى حقيقة الاصـلاح الذى ننشده . ان الوسائل التى نتبعهـا غير جديرة بأن توصلنا الى شيء . سوف أعالج هذه المشكلة أمام تلاميذى بعـد التخرج . لابد من اجراء تعديل أساسى فى هـذه اللغة التى نتكلمها . انها ليست لغـة شاعرية بالمرة . يريد أن ننشـد وأن نتغنى بها . لا يكفى أن نقول كل ما نريده بالحسـاب الجبرى ورمـوز التعبير المعملى . ألست معى فى ان ايطاليا كانت بلادا رائعة ؟ ألا تعتقد أن الحياة كانت شيئا عظيما فى تلك الأيام ؟ .

ـ كن جادا يا بنى . فليس لدينـا وقت لمثل هذا العبث الصـبيانى . انك لا تتماشى مع التقاليد العلميـة التى وضـعها فنطاؤوس . لقد قال فنطاؤوس فى آخر سبع كلمات من كراسته الزرقاء :

عيشوا بغير أن تنظروا الى الوراء البشع .

ـ ولكنه لم يكن بشعا يا استاذى .

ـ نعم كان بشعا .. ألم يكونوا يتشاجرون من أجل الغذاء . انهم تحت مستوى الآدمية . كانت الشعوب تتقاتل من اجل طعام اسمه الخبز . وتاريخ هذا الطعام موجود فى المتحف الهانسيكى أمام احدى عيناته .

ـ ولكننا نحن الآن أيضا تحكمنا خلائق غريبة عن جنسنا الآدمى العالى . ولو كنا نستخدم الشعر لاستطعنا ان ننمى حيوانا آخر أكثر ألفة من هذا الجنس المسيطر على كل تصرفاتنا . ان الآدمية تتطور بالفناء . وهكذا قامت حضارة الأقدمين المندثرة .

ـ وماذا أفادت هذه الحضارة التى تزعمها ولا دليل لك عليها الا من قصاصات تسميها شعرا . كيف توقفت فجاة ؟ .

ـ هناك سر خطير لا أجرؤ على أن انطق به أمامك الآن .

ـ وهل تخشى أن تبوح لى باعتقادك ؟

ـ بل أخشى أن أصدمك بفروضى الوهمية .

ـ قلها اذن . ولتر ..

ـ انى أحس بأن وراء كلمات هؤلاء الناس تصورات ادق مما نعرفه نحن الآن .

ـ كيف ؟ ماذا تعنى أدق ؟ .

ـ لا أعنى أدق من حيث الصحة والخطأ وانما أعنى أدق من حيث سريانها فى الضمير . انهم لم يفتك بعضهم ببعض من أجل الخبز . لقد تحركت الكرة الأرضية حركة بعيدة حتى التقطها مدار كوكب الفيلوسى الذى تدور حوله الآن .

ـ انك تقول كلاما خطيرا يابنى .

ـ ان عندى دليلا على أن نهارهم كان أقصر من نهارنا وان ليلهم لم يكن يتعدى بضعة سويعات .

ـ أوجدت هذا التقويم فى حفائرك ؟

ـ بل وجدته فى جملة لفائف كانت مخزونة فى بيت قديم أسمه المصلى .

ـ وما المصلى يا بنى ؟.

ـ انه بيت لجمعية سرية كانت تؤمن بوجود كائن يتصرف فى معاشهم من غير

أهل الأرض . وكانت بينها وبين ذاك الكائن مراسلات . وعثرت على رموز تشير الى وقت التقاء أعضاء هذه الجمعيات بعضهم ببعض من أجل مراسلة ذلك الكائن . ولم تكن الساعات تتعدى اطلاقا الساعة الرابعة والعشرين .

ـ الساعة الرابعة والعشرين . هذا مستحيل . ان دورة الكرة الأرضية تتم الآن فى ستة وخمسين ساعة . أخشى أن تكون مخطئا يا بنى فى استنتاجاتك .

ـ لقد حدث شيء مذهل حقا يا أستاذى . هل تريد أن تسمع بقية كلامى .

ـ اننى أحرص ما أكون على سماعه . ولكن قل لى أولا عن السبب الذى يدفعك الى الشك فى أن تكون الأرض قد تحركت عن مدارها الأصلى .

ـ لقد حدث شيء مذهل . ان هذه اللفائف تشير الى أن المراسلات بين الناس وبين ذلك الكائن قد احتوت مطالب عديدة منها شيء اسمه ...

ـ ما اسمه يابنى .

ـ اسمه الحياة الثانية .

ـ أهذا صحيح ؟ .

ـ بل أكيد .. طلبوا اليه أن يجعلهم يعيشوا من جديد بعد موتهم .

ـ وتظن أن هذا الكائن هو الذى ختم حياتهم على هذا النحو .

ـ بل أظن أنهم أنفسهم لم يطيقوا صبرا من أجل الخبز فأتوا بفعلة نكراء هشمت كل معالم حضارتهم وهزت الأرض هزة عنيفة قذفت بها الى مدار فيلوس الذرى . وانتقالها الى مدار فيلوس الذرى معناه اختلاف جوهرى فى طبيعة الحياة ذاتها . والعجيب أن الأطفال عندنا الآن يلعبون باللعب الذرية التى لا أثر لها البتة فى معالم الحضارة القديمة ، ومعنى ذلك أن الانسان فى الحضارة القديمة لم يعرف الذرة . اننى أريد هنا أن أقطع برأى فى المشكلة .

ـ أشهد أن كلامك سيجعلنى موضع سخرية زملائى الحكام فى امتحانك النهائى للدكتوراه .

ـ بل ستفخر بى عندما أعلن أمامهم وأمامك أننى بفضل تشجيعك حصلت على دليل قاطع بأن الأرض لم تكن تدور بتأثير جاذبية ذرية كما هو الأمر الآن .

ـ وبأى جاذبية كانت تدور يا بنى ؟ لا أحسبك تصدق ما تقول ؟ .

ـ لا أدرى يا أستاذى .. ولو عرفت لقلت لك ذلك على التو . لا أدرى وهذا هو ما يعتصر ذهنى الآن . ان الحضارة القديمة لم تكن تعرف الذرة . وان ما يشغلنى الآن هو معرفة تلك القوة التى جعلت الأرض مسحوبة نحو كوكب آخر أكبر منها . فهل حدث ذلك بتأثير ذلك الكائن الذى كانوا يراسلونه ؟ لا أدرى . ولكنى أعود فأشك من حين الى حين فى ذلك . والا فماذا يدفعه الى تخريب تلك الحضارة وتدميرها قبل انتقالها الى المدار الجديد . انهم هم

انفسهم المسئولون عن التدمير الذى حدث بدافع الخوف على الغذاء . لقد كانوا بؤساء فى حرمانهم الفظيع من الأطعمة الذرية .

ـ الآن أستطيع أن أفكر معك قليلا . ان استخدامنا للذرة وقواها وطاقاتها قديم . ولكنه يبدأ فجأة فى فترة محددة هى بداية حضارتنا الجديدة . ولا يمكن أن يبزغ فى سماء العلم استخدام مفاجىء للذرة . نحن نستفيد من الذرة فى كل شىء الآن . نأكل غذاء ذريا ونعيش حضارة ذرية كاملة . ولكن كيف تنبهنا الى ذلك .

ـ لقد تنبهنا الى الذرة منذ فجر حضارتنا بتأثيرها على الضوء واشعاعها فى كل مكان واحتمائنا منها كما كان الأقدمون يحتمون من ماء يهبط عليهم من السماء اسمه المطر .

ـ ولكن أعتقد يا بنى أن النقلة الذرية من عالم غير ذرى الى عالم ذرى قد سبقته تمهيدات ذرية . هل تعتقد أنهم عرفوا الذرة ؟ .

ـ هل تريد أن تقول انهم عرفوها وان هذه المعرفة قد اذهلتهم بسرها الكبير ؟

ـ بل أريد أن اقول لعلهم حاولوا اللعب بها فى عالمهم الذى لم تحكمه قوى الذرة فانفجرت عندهم حتى أتت على كل شىء .

ـ فعلا . فعلا .. يا سيدى .. الآن وضح لى الأمر .. لقد عرفوا الذرة فى عالم تحكمه قوى جذب مغاير لمنسوب القوى الذرية . وتحطمت جبالهم وبحارهم ووديانهم بتأثير انفجارها لعدم خبرتهم بها .

ـ بل لعدم توافقها مع عالمهم الذى عاشوا فيه . اننى أهنىء نفسى وأهنئك يا بنى باكتشافك . لا تقل لأحد هذه الخطوات قبل أن تذيعها فى رسالة الدكتوراه . ستكون رسالتك فتحا فى تاريخ الأرض . ستقول شيئا من شأنه أن يغير مفهوم الحضارة عندنا الآن . لقد كان الانسان القديم فى بداية اكتشافه للذرة عندما انفجرت فى يديه . ان الحضارة القديمة حضارة تليدة مذهلة .

ـ انها لم تكن كذلك الا بفضل الشعر والحب والغناء . ولا بد أن سحر الحب الذى لا نعرفه الآن كان من بين نطاق الجاذبية الذى عاشت فيه الأرض حينذاك . ان وهج ذاك الحب لم يكن وليد الطاقة الذرية . انه كان وليد الجاذبية المجهولة عندنا الآن والتى جعلت للأنثى القديمة مكانتها عند أهل الأرض فى تلك الأيام .

ـ ولكن كيف كان شكل الأنثى فى ذلك الوقت يا ترى ؟ .

ـ كانت كالرجل تماما لأنه كان يحادثها فى الليل وهو رافع رأسه ويتهامس معها بنغمات العاشق الولهان

من اجل استرضائها . ولم تكن تهجم عليه وتقضم لحمه لاستخراج حبيبات لقاحه كما تفعل الآن . وكانت تتفرس بعيونهـا فى عيون الرجل ساعات طويلة من الحلم والعطف والمودة .

ـ ولكن كيف كانوا يجـدون الوقت لذلك كله خلال أربعة وعشرين ساعة ؟ .

ـ ان هذا يحيرنى حقا . ولكنهم كانوا محدودى العيش ومحدودى المجال فلم يفـكروا فى غـير ما كانوا يجـدونه بين أيديهم . أننا نقضى شهورا فى التصييف على إلـكواكب الأخـرى . وننتقل من الأرض الى كل الكواكب القريبة والبعيدة اما هم فقـد عاشوا مأسـورين بتلك الجاذبية التى كانت شديدة الحنو عليهم والتى كانت تجمعهم فى حيـاة قصيرة لا يعرفون معنـاها . لقد كانوا بؤساء حقا . فلم يعرفوا شيئا سوى عالمهم الخاص . واستأثرت بهم تلك الجاذبية المجهولة ...

ـ لقد كانت اذن جاذبية شريرة .

ـ ولكنهم سعدوا بها حتى ذلك اليوم المشئوم الذى عرفوا فيه سرا من عالم غير عالمهم .

ـ أما كان يمكنهم أن يتحـكموا فى ميولهم ..

ـ هذا هو الجهاز يسجل ذبذبة تشير الى اقتراب أحد من الباب . اسمح لى يا سـيدى أن أسكت قليلا عن هـذا الموضوع .

ـ انه طوطوان تلميـذى الذى ذهب يستكشف كوكب النانـدو . ها أنت ذا قد عدت يا طوطوان من رحلتك بعد غيبة طويلة . كيف حالك يا بنى ؟ .

ـ اننى على خير حال يا سـيدى الأسـتاذ . اننى مبتهج جـدا . لقـد استطعت أن أحقق نصرا علميا هاما .

ـ ما هو يا بنى ذلك النصر . تـكلم ولا تخش شيئا فان زميلك هلهال ليس غريبا عنا .

ـ نهارك سعيد يا هلهال .

ـ نهارك سعيد يا طوطوان . أطلعنا على ما وصلت اليه .

ـ اكتشفت يا سيدى الأستاذ قوى جاذبية جديدة من كوكب بعيد عنا . انه كوكب لامع لا شك . وهو بعيد جـدا عن كوكب النانـدو الذى عشت فوق ظهره ستة أشهر كاملة . وبالتالى فهو أكثر بعدا عن الأرض . اننى أذيع سرا خطيرا الآن يا سيدى . فبعض الحديد هناك يجذب الحديد الآخر اليه بمجرد اقترابه منه . اننـا فى بداية عهد جديد يا سـيدى لاسـتخدام نوع آخـر من الجاذبية . انها جاذبية تلقائية تصدر عن بعض الأجسام . انها الحب يا سيدى الذى عرفته حضارة الأقدمين ولم يعرفه الانسان الحديث .

ـ لا تفزعنى يا طوطوان ببشائر العهد الجديد .

ـ هل سمعت يا سيدى الأستاذ . أن طوطوان يتحدث عن الحب .

ـ نعم يا هلهال . سوف تشهد عصرا جديدا نعارض فيه مناهج فنطاؤوس التى حكمت أطوار العـلم حتى الآن . سنتذوق الخبز ممزوجا بطعم لاذع له نكهة وأريج . سـنعرف قوى جاذبية أخرى سوى جاذبية الذرات . سوف نستشعر التحـــاب الذى كان يشغل الانسان القديم .

ـ اننى أخاف على حضـــارتنا من هذه البشارة يا أبنائى . قد لا نعرف كيف نسوس هذه الجاذبية الجديدة . انها من عالم غير هذا العالم . وويل لنا ان لم ندرك خفـــاياها على عجل . سنندحر عند أعتابها كما فعل الأقدمون بالذرة . هذا التحاب لم أعرفه ولم يعرفه أبواى . وها أنتم تعرفونه الآن . اننى اشارك معكم بكل قواى فى هذه الجريمة الجديدة . ولـكن دعونا نتأنى قليلا فى معرفة خبـاياها . لعلنا نصل بها الى عالم آخر دون أن نفتـــك بحضـارتنا القائمة . ترى الى اين ننزلق بأرضنا فى المرة القادمة .

ـ ماذا تقول يا سيدى الأستاذ .. ننزلق بأرضنا ..

ـ لا تخش شيئا يا طوطوان . فقد تحـدثت مع الأستاذ قبل أن تجىء فى موضوع ستعرفه فيما بعد .

ـ أما الآن يا أبنائى فاحذروا منهج فنطاؤوس العلمى . منذ اليوم لا تتبعوا نظرياته . وأقول لكم هذا المبدأ الجديد : عيشوا واســـتلهموا العبرة من الوراء الجميل الحنون .